القدس في شعر الحركة الأسيرة الفلسطينية

د. فادي صقر عصيرة

وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية

الملخص

يعرض هذا البحث لجزئية من جزئيات الشـعر الفلسطيني المعاصر، ومرافقته لقضيته الأم، وهي قضية التحرر والخلاص من الاحتلال، ولأن القدس هي لبّ هذه القضية فقد كانت ملهمة للشعراء الفلسطينيين والعرب، وذلك لما لها من منزلة عظيمة، ومكانة جليلة في نفوسـهم، وعلى الأخص منهم من عاش تجربة السجن، واكتوى بنار القيد، فكان شعرهم الأصدق عاطفة، والأرق إحساسًا، فحضرت القدس في شعرهم حضورًا ملفتًا، وتغنوا بها غناء المحب المشتاق، ورسموا لها صورة الفنان المبدع، وقد هدف هذا البحث إلى إظهار ملامح الصورة التي رسمها هؤلاء الشعراء للمدينة المقدسة، وبيان القيمة الدينية والوطنية لهذه المدينة، والوقوف على نظرة هؤلاء الشـعراء للوسيلة التي تعود فيها القدس تتنسم عبير الحرية وتستنشق أريجها، وبيان الجانب الفني والأسلوبي لهذه الأشعار، وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يسير وفق المنهج الاستقصائي الذي

يستقصي هذه الأشعار ويبوّبها، والمنهج التحليلي الذي يحلّل هذه الأشعار مبرزًا ملامح الصورة، وقد خلص البحث إلى عدد من النتائج، أبرزها: شكلت القدس إلهامًا كبيرًا لشعراء الحركة الأسيرة، فهي حاضرة في وجدانهم رغم قسوة حياتهم داخل السجون، وكذلك فقد رسم هؤلاء الشعراء صورة متعددة الجوانب، واضحة المعالم لهذه المدينة المقدسة دينيًّا ووطنيًّا، كما ظهرت عندنا الطريقة المثلى التي يراها هؤلاء الشعراء لعودة القدس، وهي طريق المقاومة المسلحة والرفض لكل أشكال التفريط بهذه المدينة، وقد جاءت أشعارهم ذات لغة خاصة ومميزة، وحافلة بالاقتباسات الدينية، والتناص بأنواعه.

المقدمة:

حظيت القدس منذ أن تأسست بمكانة عظيمة عند الأمم والشعوب، التي تعاقبت على بلاد الشام، فلم تنل مدينة أخرى منزلة كتلك التي نالتها هذه المدينة المقدسة، وقد تعاقب عليها الغزاة من كل حدب وصوب، وكلهم يبغي منها وصالًا، وفي عصرنا الحالي ترزح المدينة المقدسة تحت نير الاحتلال الصهيوني الذي مارس كل أنواع الذل والقهر ضد المدينة وأهلها، وقد قاوم الشعب الفلسطيني هذا الاحتلال بكل ما يملك من وسائل المقاومة التي أتيحت له، فدفع لذلك ثمنًا باهظًا من دمار وخراب وتهجير واعتقال، فزُجَّ خيرة أبناء هذا الوطن في سجون العدو المنتشرة فوق تراب فلسطين، وكان من هؤلاء الأسرى العلماء والمفكرون والشعراء، وقد أسهم هؤلاء كل بطريقته في زرع الوعي بقضيتهم وقضية مدينتهم المقدسة حتى وهم خلف القضبان.

لقد لعب الشعراء والأدباء دورًا مهمًّا في توعية الناس بقضية القدس، وخاصة الأسرى الذين يعيشون مع هؤلاء الشعراء في غرف لا تصلح إلا للأموات، وقد سجل هؤلاء الشعراء ما حدث للقدس في تاريخها وحاضرها، وعبّروا عن تلك العلاقة التي تربطهم بهذه المدينة المقدسة، ولأن الشعراء الأسرى هم الأرهف شعورًا، والأرق إحساسًا، فقد تحدثوا عن وجع القدس وألمها، ووصفوا جمالها وروعتها، وتحدثوا عن تحريرها

والطريق الموصول إليها.

وقد كان لي شرف الالتقاء بعدد من هؤلاء الأسرى الشعراء، والاستماع لقصائدهم، وهنا ظهرت فكرة هذا البحث، وللأسف فإن كثير من هؤلاء الشعراء لم تصل أشعارهم إلى القراء وبقيت حبيسة الأدراج، وقد تواصلت مع عدد من هؤلاء الشعراء الذين أرسلوا لي ما كتبوه من أشعار حول القدس، إضافة إلى دراسة عدد من الدواوين الشعرية التي كُتِب لها النشر والانتشار.

لقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يسير وفق المنهج الاستقصائي الذي يستقصي هذه الأشعار ويبوّبها، والمنهج التحليلي الذي يحلّل هذه الأشعار؛ مبرزًا ملامح الصورة التي رسمها هؤلاء الشعراء للمدينة المقدسة، وقد جاء البحث في أقسام أربعة: القسم الأول كان حول جمال القدس وقداستها عند هؤلاء الشعراء، والقسم الثاني أبرز معاناة القدس وأوجاعها من خلال أشعار هؤلاء الشعراء، أما القسم الثالث فكان لبيان وجهة نظر هؤلاء الشعراء في تحرير المدينة المقدسة والطريقة التي يجب أن نطرد بها المحتل، والقسم الأخير كان لدراسة بعض الظواهر اللغوية في شعر الأسرى حول المدينة المقدسة، وخُتم البحث بخاتمة أبرزت أهم النتائج التي توصل لها.

القسم الأول: جمال القدس وقداستها

رسم شعراء الحركة الأسيرة صورة مميزة ورائعة لمدينة القدس وجمالها، وقد جاءت هذه الصورة متناثرة في ثنايا قصائدهم وبين أبياتها، فجاءت كأنها قمر منير في ليل الظلم الحالك الذي تعيشه القدس بسكانها وجدرانها ومآذنها، صورة لمعت ملامحها في دجى الظلم الذي صورته قصائدهم، فهذا الشاعر الأسير عمر عطاطرة يبدع في رسم صورة الطهر والعفة والجمال للقدس؛ فجمالها يشابه نكهة الليمون والنسرين، ووجهها في الصبح مزيج من هذا الجمال، ورائحة عطرها ووديها تشابه العنبر؛ فهي من تراب طاهر، حيث يقول:

تسلَّق نكهة الليمون نسرينا

كوجه القدس في صبح

وحلّق أيها الطائر

تنشق عنبر النسمات في الوادي

وترب بلادنا الطاهر.[1]

أما الشاعر وائل محيي الدين، فقد رسم في سجنه صورة رائعة جميلة لمدينة القدس التي تسكن في قلوب الشعراء وجوارحهم، حيث جعل القدس في إحدى قصائده فتاة جميلة تستحق الغزل، فهي تشعل الشوق في قلب المحب العاشق، فقال:

إني لأقرأُ سورة الإسراء تنبضُ في عيونكْ

والزخرفاتُ تصيح مِنْ على جُدُرِ المدينةِ في جفونكْ

هلّا رحمتِ مصليًّا شدّ الرحالَ إلى رحابِكْ

ضاقت به الدنيا فأرخى قلبه المُضنى جوارِكْ

فضمّي لصدرك مُتعبًا ذَرَفَ الدموعَ على قبابك[2]

في الأبيات، نرى الشاعر يطلب الرحمة من هذه المعشوقة، فهو قد شَدّ الرحال إلى رحابها، ويطلب منها أن تضمه إلى صدرها، فهو متعب من البعد عنها، وبسبب ما تلاقيه على أيدي اليهود الغاصبين، وهو يريد أن ينزف دموعه على قبابها وفي ساحاتها.

وفي بيت آخر، يجتمع الشاعر مع محبوبته المقدسة على بلاط الشوق وهما يغرقان بالدعاء فقال:

وأنا وأنت على بلاط الشوق نغرق في الدعاء.[3]

وبعدها يطلب منها أن تحمل عنه همومه، وهذه الهموم مصدرها القدس، وما تعانيه من

ظلم وسجن على أيدي بني اليهود، فقال:

فاحملي عني همومي واتركيني للسماء

علني ألقاك نجمًا ساطعًا

تزهو به محاريب السماء.[4]

فهو يريد أن يرى كل الجمال في هذه المدينة الحزينة، ويريد لها أن تتخلص من حزنها وتعود نجمًا ساطعًا في السماء، هذا النجم ليس كغيره من النجوم، بل هو فاق الكل جمالًا وروعة، والكل يزهو به ويفخر، وكذلك القدس تزهو بها كل المدن وتفتخر بها كل القرى والأماكن.

وهذا المعنى أعاده الشاعر في قصيدة أخرى حين خاطب الأوغاد الذين يظنون أن القدس عندنا مثل أية مدينة أو أية قرية، فحسم شاعرنا الأمر مخاطبًا إياهم بسخرية واستهزاء قائلًا:

فهل يعلم الأوغاد في هذه الدنيا

أن جنان الأرض قاطبة

لا تضاهي في القدس أدنى زقاق.[5]

وهذا الجمال المتفرد لمدينة القدس ذكره الشاعر وليد خالد، حيث عاب على كل من يظن القدس كغيرها، فالقدس من وجهة نظره هي كل الناس، وهي تحمل الهوية الإسلامية التي تستمد قوتها وطهرها من الوحي الذي ينزل على الأنبياء والمرسلين، وهي طاهرة تأبى أن تفتح صدرها لكل المعربدين والسكارى، فقال:

يا من يظن القدس أي مدينة — القدس كل الناس لكن خيّرون

هـذي هويتها الأصيلة آية — يتلـوها الهداة المرسلون

هل يحسب الشذاذ تفتح صدرها — للعهر يسكر أهله ويعربدون[6]

ومرة أخرى لا يتخلى الشاعر وائل محيي الدين عن الحب، حتى في زمن الحرب، وحين تشتعل النار في قلب المدينة الرائعة الجميلة فهو يرسم لها صورة الصباح الجميل، صورة جمعت الحب بالحرب، والكره بالعشــق، جمعت الورد ورائحة المسك الذي تفوح منه، إنه صباح مقدسي مزين بالحب والعشــق والورد والمســك، فقال في مقطوعة بعنوان صباحك مقدسي:

صباحُ الحبِّ حين الحربُ تشتعلُ

وهذي القدس من عينيك تكتحلُ

صباح الخير يا قمرًا بنور العشق يكتملُ

صباح الخير يا وردًا تضوّعَ مسكهُ الخَضِلُ[7]

والشــاعر الصحفي الأســير نواف العامر، يرى أن القدس مقدسة من الإله، وزينتها المسجد الأقصى، وسرّ هذا التقديس هو الآيات الكريمة التي قدستها وخلدت ذكرها، فقال:

القدس صرح قدّسه الإله بآية ومسجدي الأقصى تاج حضارتي[8]

وفي قصيدة أخرى، يرى الشــاعر في القدس فضاءه ويومه وأمســه وغيرها من آيات الجمال، فقال:

القدس قدسي والفضاء يومي وأمسي والعطاء

هي نبض روحي قومي يا سروري والفداء.[9]

وفي أخرى، أســبغ الشــاعر على مدينته مظاهر جمال عديدة، رســم لها صورة تزخر بالصورة الرائعة والمتناقضة في آن، فقال:

القدس حبي والغضب

يا نار قلبي واللهب

يا قبلتي الأولى

يا لوحة الشمس

يا ضوء القمر

أنت اللهيب

أنتِ الخيول الباسلة

يا قدسنا.... يا قدسنا

حان اللقاء

لقاء الحبيب بالحبيب.[10]

فالقدس عنده الحب والغضب في آن واحد... هي حبه وهي غضبه، بسبب ممارسات الاحتلال، القدس القبلة الأولى التي صلّى لها المسلمون، ثم يُغْدق الشاعر على محبوبته صورًا جميلة؛ فهي الشمس وضوء القمر، وهي الخيول القوية الباسلة، وهو ينتظر أن يلتقي بها، ليس لقاءً عابرًا، بل لقاء محب مع حبيبته بعد طول غياب وانتظار.

وفي برقيات الشاعر نواف، نرى الصورة الجميلة للقدس مرة أخرى؛ فهي قبلة العشاق وهي حلوة الدار، وهي المرأة الجميلة الرائعة، هي الحلوة التي تزين الديرة، هي شجرة السرو القديمة منذ الأزل، وهذا تأكيد على بطلان ادعاء اليهود بها، فهي صاحبة العيون السحرية الجميلة، فقال:

يا قبلة العشاق

قلبي وروحي ثائرة

....

قومي يا حلوة الدار

تزيّني

للرعد القادم نشتاق

عفوًا يا حلوة ديرتنا

....

يا شجرة سرو أزلية

عيناك قباب سحرية.[11]

وفي مقطع آخر، يعيد الشـــاعر نواف في قصيدة بعنوان «بلاد القدس أوطاني» الصورة المشرقة الزاهية للمدينة المقدسة، فهي أحلامه وآماله فقال:

بلاد القدس أوطاني

وأحلامي

وآمالي

وأيامي وأنسامي

وعطر الورد والزهرة

وشوق الشمس يا قمري

وشوك الصبر للغازي

سأطلق كل أطياري

إلى العلياء أحضنها

بلاد القدس أنشودة

لكل الكون معهودة[12]

أما القدس عند الشيخ رائد صلاح، فهي مدينة الجمال الذي ما بعده جمال، فهي مدينة الأنس والحاضر والأمس، بل المستقبل كذلك؛ فالبهاء يزينها، ومباركة الله لها تحرسها، ويكفيها فخرًا وثناء أن الأقصى تاجها، وهذا ما سطره الشيخ رائد في قصيدة له بعنوان «أي جمال أنت يا قدس» فقال:

أي جمال أنت يا قدس أي جلال فيك وأنس

أنتِ الحاضر أنت الأمس والمستقبل يا قدس

يكفيك ثناء لا يحصى أن التاج عليك الأقصى.[13]

والأمر لا يختلف كثيرًا عند الشاعر وليد خالد، فقد وصف مدينة القدس بأوصاف غاية في الجمال والدقة فهي شاعرة، وجوهرة، وعروس، فقال في قصيدة طويلة له:

القدس شاعرة وصعب بحرها يا مبحرًا حاذر عميق مكرها

القدس أغنية القصيدة حزينة يبكي السحاب إذا تغنى طيرها

القدس خُطّاب العروسة فتيةٌ ثارت ودن القدس يرهن كسرها.[14]

أوصاف متنوعة خلعها الشاعر على مدينته المفضلة، فهي شاعرة يَصعُب على أي إنسان أن يبحر فيها، بل هي البحر العميق الذي يحتاج إلى الحذر حين الاقتراب منه، والقدس كذلك أغنية حزينة، وما هذا الحزن إلا بسبب الاحتلال وجرائمه، وكذلك هي العروس الجميلة غالية المهر وهناك خيرة الشباب الذي هم خُطّابها، ومستعدون لتقديم الغالي والنفيس من أجلها وتقديم المهر المناسب لها.

وهذه الصورة -صورة القدس العروس- أعادها الشاعر وليد في قصيدة أخرى بعنوان «القدس بين الصغار والكبار»، فقال:

هي حرة مهر الحرائر من دم فليدفع الخطاب والأحرار.[15]

إنها القدس الحرة العفيفة في نظر الشاعر، وهذه الحرة العفيفة مهرها غال، وهو الدم

والشـــهادة، والشـــاعر يســـتحدث الخُطاب والأحرار على تقديم هذا المهر من أجل الحصول على هذه العروس الجميلة.

والأمر نفســـه نراه عند الشـــاعر محمود الغرباوي، فالقدس في نظره لا تقل أهمية عن عروسه التي فارقها يوم دخل الســـجن وحالت بينهم القضبان، فهو في سجنه ورغم قساوة قيده إلا أن عروسه والقدس لا يمكن نســـيانهما، فقال في قصيدته التي عنوانها «سيرة الليل والبارود»، جمع بين عروسه والقدس.

وجدي توعدني باكرًا

بشابوقة

إن نسيت عروسي

وقدسي[16]

أما الشاعر هشـــام خطاطبة، فقد عبّر عن حبه للقدس وجمالها بطريقة مختلفة عن غيره من الشـــعراء، وذلك عن طريق مقارنتها مع مدينة أخرى يحبّها الشـــاعر لجمالها وهي مدينة بغداد، فبغداد هي المدينة الأجمل عند الشـــاعر خطاطبة، ومثلها القدس وعبيرها ونسماتها، فعبيرها يمنح المجد والفخار، فقال في قصيدة بعنوان «ابنة الهكسوس»:

موتوا، في نظري بغداد هي الأجمل

من كل مدائن هذي الدنيا

كالقدس عبير تنسمنا

مجدًا وفخارًا تمنحنا[17]

القسم الثاني: معاناة القدس وأوجاعها

قد تكون هذه المعاناة التي تعيشـــها المدينة المقدسة الأوفر حظًّا عند الشعراء الأسرى، وهذا يدل على حجم المعاناة التي تتعرض لها المدينة المقدســـة تحت نير الاحتلال، وقد

تنوعت مظاهر هذه المعاناة وهذا الاضطهاد، وقد أسهب الشعراء في وصف هذا الألم الذي تعيشه، وهذا الجرح الذي يدمي جسدها، ويمزق وحدتها، فالشاعر الأسير عمر عطاطرة يطلق رسالة مناشدة لحماية القدس والحفاظ عليها ممن سرقوها واحتلوا أرضها، ودنّسوا مشاعرها المقدسة ولكن للأسف لا أحد يجيب، فيقول شاعرنا في مقطوعة له:

تناشد فيكم بقايا الضمير ... ونار الحمية يا مسلمون

وتستصرخ القدس أبطالها ... وتهتف فيكم ألا تسمعون

حرامي يُدنس من طغمة ... وأهل المروءة لا يهمسون

أيجثم علج على أضلعي ... ويبصر قومي ولا ينهضون

يعيث اليهود بأرضي فسادًا ... وأنتم شهود بما يفعلون[18]

في الأبيات السابقة، نلحظ الشكوى والأسى والحسرة على لسان القدس، لما تتعرض له من انتهاكات وتدنيس حرمات، ولكن هذه الصرخة ترتد للقدس مجروحة مكلومة، فالعرب لا يحركون ساكنًا، بل على العكس هم شهود على جرائم اليهود إن لم يساندوهم.

وفي مقطوعة صغيرة بعنوان (أم المدائن)، صوّر لنا الشاعر الأسير عمر عطاطرة ما تعانيه القدس من الظلم والقهر على يد المحتلين الغاصبين، وعدّد لنا بعض هذه الاعتداءات التي يتخذها الصهاينة في حربهم ضد المدينة المقدسة، فقال في أبياتها الأولى:

أموصدة الأبواب أم المدائن ... تئن وتبكي تحت نهش البراثن

أتمنع في القدس الصلاة نكاية ... وتُخرِسُ كف البغي صوت المآذن

يُدنس سكير المواخير مسجدًا ... ويعبث أرباب الخنا بمواطني

أيُبعد عن باحات طهرك عابد ... وتوضع أبواب لكشف المعادنِ.[19]

أبيات أربعة ضمت صنوف الألم والمعاناة التي تعانيها هذه المدينة المقدسة تحت

الاحتــلال، فالأبواب مغلقة أمام المصلين، مفتوحة لأعدائهــا؛ فهي تبكي على الحال الذي وصلت له المدينة نتيجة هذا الإغلاق لأبوابها، ومنع أهلها من الصلاة فيها، وما هذا المنع إلا نكاية وعدوانًا وفســادًا، ولم يقف الأمر عند هذا، بل عمل المحتلون على إسكات صوت الأذان، وأصبحت المآذن خرساء بفعل هذا الظلم المنتشر في المدينة.

ونرى في البيت الثالث من المقطوعة الســابقة صورة ذلك الجندي الذي قام بالأفعال الدنيئة في المدينة المقدســة، فهو ســكّير في المواخير والحانات، كل همّه أن يُدنس البيت المقدس والمسجد الأقصى، وكذلك هؤلاء الزناة -كما صورهم- يعيثون فسادًا في هذه المدينة وفي ساحات المسجد الأقصى.

ثم نرى الشاعر يصف لنا أســلوبًا آخر من أساليب الطغاة اليهود بحق المدينة المقدسة وأبنائها، وهو إبعاد أهل المدينة عنها وعن ســاحاتها ومساجدها، ولمن لم يبعدهم عنها نراه يضــع لهم الأبواب الحديدية الإلكترونية للكشــف عن المعادن التي يســتعملها الفدائيون الفلسطينيون للدفاع عن مدينتهم.

ومن وجهة نظر الشاعر وائل محيي الدين، نرى القدس تعاني الموت وتغرق في الدماء، والقدس خرجت من الحسابات بعد أن كانت كل النصوص تدور حولها، هذه المعاناة أبرزها الشاعر في قصيدة بعنوان «دموع على وجنة القدس»، فقال:

القدس تغرق في الدما

ثكلى تئن من العذاب

والقدس صارت خارج النص المقدس.[20]

أما الشــاعر نواف العامر، فقد اشــترك مع غيره في بثِّ لواعــج الحزن ووصف حالة الوجع التي تعيشها المدينة المقدسة، فقال في مقطوعة صغيرة:

القدس الحزينة تنادي اليوم من وجع

والمسجد القبلي يئن تدنيس المجرم

والساح تبكي حجارته من قهر فوا لهفي.[21]

فالقدس حزينة لما يحدث فيها من الاحتلال، وهي تنادي على من يفك أغلالها لكن ما مِن مجيب، وهي تناديه من وجع وألم، ويواصل الشاعر ذكر بعض معالم هذه المدينة المقدسة، فالمسجد القبلي يعاني ويقاسي تدنيس اليهود الذين وصفهم بالمجرمين، أما الساحات فلا يختلف وضعها السيئ عن بقية معالم المدينة، فحجارة الساحات تبكي ألمًا وحزنًا.

أما الشيخ رائد صلاح، فقد رسم صورة معاناة جديدة للقدس تحت الاحتلال، أبرز مظاهرها بتشخيص وتجسيم واضحين، فالقدس تشكو الظلم، والأقصى يعاني سكرات الموت، والعدل في الصخرة الشريفة يقف باكيًا حزينًا، ويكاد أن يُصاب بالجنون ويقترب من الانتحار، كل ذلك لما يعانيه من الاحتلال فهو سبب ضياع هذا العدل؛ فالاحتلال كله جور في جور، وظهرت هذه الصراحة في قصيدة حملت عنوان «رسالة إلى أولادي وأولاد كل سجين» فقال:

والقدس لبابة تشكونا والمسرى فيها يحتضر

والعدل على الصخرة يبكي ويكاد يجُن وينتحر.[22]

لا تختلف مظاهر معاناة الأقصى عند الشاعر خالد سعيد عن غيره من الشعراء، فهو يراه يئن ألمًا من ظلم الاحتلال، وما يفعله من نبش تحت أساساته وبنائه، فهو حلال لليهود الذين وصفهم بالقرود؛ محرّم على أبنائه وأحبابه الذين وصفهم بالبلابل؛ فالأقصى عنده -كعند غيره من الشعراء- أسير تحت حكم الاحتلال، ففي قصيدة قالها في سجن مجدو عام 1991م:

والمسجد الأقصى يئن وتحته نبش اليهود

في قدسنا تنزو القرود وبلبل الأقصى طريد

يا أيها الأقصى الأسير ألم تحنّ إلى السجود.[23]

أما الشـــاعر المتوكل طه، فقد صوّر لنا هروب العرب أمام الاحتلال الصهيوني لمدينة القدس، وتركوها وحيدة تجابه الغزاة القادمين الذين يســـعون لتحويلها إلى مدينة لهم، وحتى اسمها سوف يتم تغييره ليصبح أورشليم، والمسجد الأقصى سوف يزول ويحل مكانه الهيكل المزعوم، ظهر ذلك في قوله:

وكيف نقول: إنا عند باب القدس

والعربان قد هربت

دخلتها لتصبح أورشليم الهيكل المزعوم؟[24]

والشـــاعر محمود الغرباوي، رصد لنا معاناة القـــدس بطريقة مختلفة بعض الشيء عن غيره من الشعراء؛ فهي إنسان يستمع ويقرأ لما يحدث لأبنائها داخل السجون وما يجتاح صدورهم مـــن الذكرى والذكريات للّذين رحلوا عن الســـجن وللّذين أتوا بعدهم، فقال:

ويكتب إسحاق للقدس، عمّا

يُهيّج في السجن- ذكرى الذين مضوا والذين أتوا.[25]

وبعدها، يراها ترصد وتراقـــب كل الأعداء المحيطين بها والمتربصين بأبنائها ويريدون القضاء عليها بعد أن وضعوا الســـكاكين حول عنقها، فهم ينتظرون الفرصة السانحة للإجهاز عليها، ومع كل هذا الجو المخيف والمرعب الذي تعيشـــه القدس نرى أنها لم تنس الحب والعشـــق؛ فهي مازالت تحفظ الحب وتسمع وشوشة العشاق الذين باحوا بحبهم وعشقهم في رباها وفوق أسوارها، فقال:

والقدس ترصد كل السكاكين في عنقها وتحفظ وشوشة العاشقين.[26]

والشاعر الغرباوي سوف يبقى صامدًا واقفًا في وجه الاحتلال الذي أبعد القدس عن

أبنائها وحال بينها وبين بقية المدن، يقول:

لكننا سوف نبقى

وقوفًا سنبقى

إلى أن يُمدّ على السور جسر إلى القدس أو يُسجى إلى القبر.[27]

أما الشاعر خضر محجز، فيستعرض مصيبة حزيران وما فعلته من دمار وخراب في المدينة المقدسة حتى ميراث الأنبياء لم يسلم من دنسهم وجرائهم.

من جديد حزيران يأتي إلى أورشليم ليحيي ذكرى اتحاد العصافير بالسيف

في أورشليم

حزيران صاغ معاهدة الصلح من التراب وسيل الدماء

وفي أورشليم

يغنون للموت

فوق رفات الشرائع والأنبياء.[28]

والشاعر نبيل الجولاني يسير على الطريق ذاتها في قصيدة (شظايا ولهب)؛ حيث صور جرائم الاحتلال يوم دخلوا المسجد الأقصى والمدينة المقدسة، فقال:

في السابع من حزيران

غاب الطهر وانكسرت الشمس

يوم دخلتم القدس

انفرط حب الرمان

ومات في سمائها القمر[29].

صورة مأساوية رسمها الشاعر لدخول القدس في حزيران، فقد دنسوا المسجد والمسرى وكسروا الشمس، ومات القمر، بل قد فعلوا كل الجرائم وانتهكوا كل الحرمات.

وكان لحريق الأقصى ردة فعل صاخبة عند الشعراء، فنراهم يصورون الحريق وما حصل للأقصى حينها، فقال الشاعر برهان السعدي في قصيدة بعنوان «السجدة»:

رحِّلونا هجِّرونا واهدموا

كل بيت وامضوا في أحقادكم

جامعات العلم والمهد أحرقوا

مسجد الأقصى وصبّوا عاركم[30].

القسم الثالث: طريق النصر وتحرير الأقصى:

كانت -ولا زالت- قضية تحرير الأقصى وفك القيد عن المدينة المقدسة الشغل الشاغل للشعراء الأسرى، فهم في أسرهم يخلعون عليها البؤس الذي يعانونه في أسرهم، فالقيد الذي يطوق معاصمهم هو نفسه القيد الذي قيّد المدينة المقدسة وكبَّل أبناءها، فنرى لكل واحد من هؤلاء الشعراء وجهة نظره في الطريقة التي يجب فيها تحرير الأقصى وتخليص المدينة من قيودها، فهذا الشاعر المتوكل طه يرى أن الفرحة ناقصة وأن نشيد الحرية والعزة لم يبتدئ، وعلينا أن نشعل الأرض بالثورة والنار، وذلك لهدف واحد فقط، هو اكتمال فرحة القدس وارتفاع الغناء في سماها وظهر ذلك في قوله:

لم يبتدئ بعدُ النشيد

ولم يكن

إن لم يُشعلِل كل هذه الأرض

مجدُ النار

إن لم تكتمل في القدس أغنيتي[31]

ومن الأبيات السابقة، نرى الشاعر يحدد الطريقة التي سوف ترتفع بها الأغنيات في سماء القدس وهي طريق النار، وهذا دلالة على الثورة التي هي سبيل التحرير.

وهذه الطريق هي ذاتها التي تحدث عنها الشاعر كمال عبد النبي؛ حيث يرى أن حماية القدس والأقصى لا تكون إلا بالنار والحرب ومواجهة القوة بقوة أكبر، فهو يقول:

إن حرقوا الأقصى يا ولدي

فقولوا بحق الأجناس

وتدمير الهيكل

هذا عشق في الروح.

في نفس الثائر يعظم[32].

فالشاعر كما نرى يريد الرد بقوة على أي اعتداء على الأقصى، فإن تعرَّضَ الأقصى للحرق فالردّ على هذه الجريمة يجب أن يكون أقوى بحق كل أجناس المحتل، وتدمير الهيكل الذي هو سبب الهجوم على الأقصى، والدفاع عن الأقصى في نظر الشاعر هو عشق في نفس الفلسطينيين وروحهم، وهذا الثأر من المحتل يَعْظُم يومًا بعد يوم.

أما الشاعر وليد خريوش، فيرى أن أعظم ما يمكن أن يحصل عليه الشعب الفلسطيني هو النصر على الأعداء المحتلين، وتوحيد أبناء الشعب الفلسطيني، وعلامة هذا النصر هي ارتفاع الأعلام فوق القدس فرحًا بالانتصار والتحرير، وهذا يدل على مركزية القدس في قلوب الفلسطينيين، فذكر القدس هنا يُقصد به فلسطين كلها، وإنما ذكرها دون غيرها لما لها من أهمية ومكانة فقال:

سننال ما نصبو إليه وننتصر — فكفى بكاءً أيها الأقزام

فغدًا نوحد شعبنا في أرضه — والقدس تعلو فوقها الأعلام

هذا نتاجٌ من تواصل ثورةٍ — إن الطلائع قادها القسام.[33]

في البيت الأخير، نرى وجهة نظر الشاعر في التحرير وأن هذا التحرير كان بسبب الثورة المتواصلة ضد الاحتلال الصهيوني، وهذه الثورة متواصلة منذ سنوات طويلة، قاد أوائل طلائعها الشهيد عز الدين القسام الذي جاهد ضد الاحتلال الإنكليزي لفلسطين واستشهد في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي، وهذه الانتفاضة ما هي إلا مواصلة لدرب القسام في الجهاد والمقاومة ضد الاحتلال.

والشاعر عمر عطاطرة يعتقد أن طريق التحرير واضح، والدفاع عن القدس لا يكون إلا بطريق واحد واضح هو طريق النار والمواجهة فقط لهذا العدو الغاصب، فقال:

أيا قدس أذكى النار في وجه غاصب

وصبّي جحيم الردى على كل خائن

بعضة أسناني بخمش أظافري

أقاوم أحمي العرض من كل شائن[34].

فالشاعر سيقاوم المحتل بكل ما عنده من قوة، حتى أظفاره سيستعملها، وأسنانه سيجعل لها دورًا في مهمة الجهاد والمقاومة ضد هذا العدو الغاشم.

والشاعر وائل محيي الدين، يرى أن الطريق إلى القدس طريق صعب وشاق وفيه من التضحيات ما فيه، ومع ذلك فهو يستسيغ هذا الطريق ويتحمل كل شيء لأجل القدس ولأجل مدينته الحبيبة، فهذه المدينة وقبابها ما غابت عنه لحظة حتى في أحلك أيامه داخل السجن، فقال:

وعيني لا تزيغ عن القباب هنيهةً

وأعلم أن الدربَ مفروشٌ بآلاف الضحايا

لكنها القدسُ

والقدسُ وشمٌ ليس تلغيه الخرافاتُ الشقيّةُ

كلا... ولا دُوَيْلاتُ النفاق

والقدسُ فجرنا الآتي وبلسمُ روحنا

والقدسُ جرحٌ موغلٌ فينا

والقدسُ نزفُ العمرِ والترياق[35]

وفي مواضع أخرى، يلتقي الشـــاعر وائل محيي الدين مع غيره من الشـــعراء في وسيلة التحرير لهذه المدينة المقدســـة؛ فالتحرير لونه أحمر ولا يصنعه ســـوى صليل السيوف والخيول التي تعرف البيدر، فهو شاعر لا يخاف الموت من أجل القدس، فقال:

صليل السيف يُنبئنا

بأن القدس موعدنا

وحقُّ البيت أن يُعمَر

فمن صلّى ليتبعنا

نُريق الدمّ في خيبر

ومن ساحٍ إلى ساحٍ

تطوف خيولنا البيدر

ونُعلي راية القرآن نحميها

نخوضُ الموت لا نُقهر[36]

نلاحظ استعمال الشـــاعر لألفاظ وعبارات ذات دلالات واضحة، فالدم سوف يُراق في خيبر، وهي رمز لحصون اليهود في عهد النبي -عليه السلام-، وراية القرآن الكريم رمز للدين الإسلامي الذي سيعلو ويعود إلى القدس بعد طول الغياب بسبب الاحتلال الصهيوني.

والشيخ رائد صلاح يلتقي مع غيره من شعراء الحركة الأسيرة في تقديم الغالي والنفيس من أجل القدس والأقصى، وأغلى ما يملكه الإنسان هو روحه ونفسه، فقال في قصيدة له بعنوان «صرخة سجين»:

ونحن الدرع للقدس الجزع الشامخ الهامَه

ونحن الحصن للأقصى ونحن الجند مقدامه[37]

فالشيخ صلاح يجعل من نفسه درعًا وحصنًا للقدس ومعالمها المقدسة، وأبرزها المسجد الأقصى، وهذه التضحية لأجل القدس والمسرى هي التي أدخلت الشيخ رائد إلى سجون الاحتلال مرات عدة، وقد عبّر عن ذلك بصراحة تامة في قصيدة بعنوان «لماذا أنا في قفص الاتهام» فقال:

لأني الدرع للأقصى ودمع القدس يبكيني[38].

وقد أسهب الشيخ رائد صلاح في بيان الطريق لتحرير القدس والأقصى؛ فهذه الطريق واضحة، والسبيل لتحرير الأقصى بَيِّن واضح في نظر الشيخ رائد صلاح، فهو لا يرى غير القتال والجهاد سبيلًا لتحرير الأقصى، والزحف إلى القدس واجب مقدس فقال:

وتقدم زحفًا للقدس القدس لنا خير معاقل

وتقدم ارفع في الأقصى للغرة بيرقنا العادل

القدس لنا والأقصى لنا والخزي له فاصمد قاتل[39].

الشاعر في الأبيات السابقة يحسم الخلاف على القدس والأقصى فهي لنا نحن المسلمين، وما للاحتلال سوى الخزي والعار، ولكن هذا الحق لا بد له من صمود وتضحية وقتال حتى تُرفع بيارق المسلمين فوق الأقصى، وهذه البيارق لا ترتفع إلا بالزحف نحو القدس وطرد المحتلين منها.

وفي قصيدة أخرى، نرى الشيخ رائد يستهجن غياب العرب عما يجري في الأقصى، فنراه

يسأل عن الرجال الأقوياء الذين سيحررون الأقصى، وعن العرب ودورهم المقيت في الدفاع عن الأقصى، فقال:

أخي إنه المسجد المغتصب ينوح حزينًا يا للعجب

فأين الرجال وأين العرب فلم أسرج الفرس الأبلقا[40].

فالأقصى حزين مغتصب، هذا الأمر يدعو للعجب والاستغراب فكيف يكون ذلك، وأين رجال الأقصى وأين العرب مما يجري له؟ ولكن رؤية الشيخ رائد لتحريره واضحة وهي الحرب والقوة، والتي استخدم لها رمزًا عليها وهو الفرس الأبلق الذي يشارك في المعارك بقوة.

أما الشاعر وليد خالد، فقد عرض في شعره وجهة نظره في تحرير الأقصى والمدينة المقدسة، وهذه الوجهة لا تختلف عن غيره من شعراء الحركة الأسيرة؛ فهو يرى أنها لن تعود إلا بالجهاد والتضحية وبإشعال الحرب مع الاحتلال، فقال:

القدس شاعرة يحارب شعرها فاركب إليها الحرب هذا بحرها

أو كان عَرَّض للنقاش عفافها عار أيعرضُ للتفاوض طهرها[41]

فالطريق واضح لا مراء فيه من أجل القدس، إنه طريق الحرب والدماء، أما طريق المفاوضات فهو عار على من يقبل أن يُفاوض على طهر المدينة المقدسة؛ فالقدس أطهر -من وجهة نظر الشاعر- من هؤلاء المفاوضين ومن مفاوضاتهم.

وهذا المعنى أعاده الشاعر في قصيدة أخرى «القدس بين الصغار والكبار»، فقال:

والقدس تأبى أن تعود بسلمهم أو أن يحررها أُخيّ صغار

والقدس تأبى أن تعود بسلمهم أيعيد قدس الفاتحين صغار[42].

فالقدس وبكل وضوح وصراحة تأبى العودة بطريق التفاوض أو بطريق السلام، والذي سيحررها فقط هو الحرب والجهاد.

القسم الرابع: ظواهر لغوية

أولًا: اللغة الشعرية:

اللغــة هي العنــصر الفعال والمميــز في العمل الأدبي، شــعره ونثره، والشــاعر هو ذلك الإنســان الذي لا يملك وســيلة أخرى غــير اللغة لإيصال أفكاره ومشــاعره وأحاسيســه(43). والشــعر له لغته الخاصة التي تميزه عن لغة الكلام العادي، وهذه اللغة هي التي تعكس توجهات الشــاعر الفكرية والأدبية، وقد اســتخدم الشــعراء الأسرى حين تحدثوا عن القــدس اللغة ذاتها التي يســتخدمها غيرهم، لكنها تميزت عن غيرها بتلك المفردات المميزة، والتي تختلف عن اللغة المســتخدمة خارج السجن، فالسجن له حياته وعالمه، الذي انعكس على طبيعة اللغة المستخدمة، فهذا الشاعر وليد خالد يستعمل في سجنه وحين يحدثنا عن الأقصى ألفاظًا ذات دلالات توحي بنفسيته وطبيعة القضية التــي يتحدث عنها؛ فنرى عنده القدس الحزينــة والغازي والمعامع، والغزاة، والذئاب والمصونة والجهاد، وغيرها من العبارات والكلمات التي تشي بنظرته تجاه المدينة المقدسة ومحتلها ونأخذ مثلًا قوله:

قبل انتصاري أو أموت معززا — في القدس لا لن يهدأ المشوار

فلقد ولدت على جواد راكض — ومعي حسام صارم بتار

ماضٍ لمعركة يخط حكايتي — فيها دمي ويصوغها الإصرار

فإذا سقطت فتلك أمنية المنى — وعلى دمي سيواصل الثوار(44).

نلحظ اســتعمال الشــاعر لألفاظ الحرب والقوة والدمار والانتصار، فالانتصار على العــدو وطرده من القدس هو غايته، ولذلك اســتعمل عبــارات وألفاظًا ذات دلالة خاصة بالنصر كالجواد والحســام الصارم البتار، وهي عدة المعركة، واســتعماله لدمي توحي بطريقة تحرير القدس، وقد كررها عدة مرات في قصائده حول القدس، وكذلك كلمة الثوار وما تحمله من دلالات معنوية ومادية في مواجهة الاحتلال بكل الوسائل.

وكذلك نرى لغة نواف العامر تعج بالألفاظ القدسية، وما فيها من ألم وذكريات؛ فالغازي هو نفسه والحبس الذي فيه المدينة المقدسة الكل يعرفه، فقال في مقطوعة صغيرة:

متى تطلق يديها

من الحبس[45]

فكلمة الحبس توحي بكل القيود المفروضة على المدينة المقدسة، فهي تشارك أبناءها حبسهم عند العدو الصهيوني.

وكذلك هو الموت عند الشعراء لأجل القدس يحلو ويطيب، فهذا نواف العامر يستعمل لفظة الموت والدم وذلك لأجل القدس، فقال:

دعني أموت عاشقًا

لعيون القدس[46].

أما الشاعر وليد خالد، فقد وظّف تركيبًا استعمله الشاعر أبو فراس الحمداني في شعره، وذهب مثلًا عند الناس وأصبح يتردد على ألسنتهم في كثير من المواقف، فقال:

والقدس بدر الحالكات جميعها في الليلة الظلماء يُفتقد بدرها[47].

أما الشيخ رائد صلاح، فقد استعمل لغة سهلة غير متكلفة، حوت ألفاظًا موحية بالمعنى الذي يريده الشاعر، فكلمة (دمار والمحاصر، والخواجة) جاءت في حديثه عن محاولات اليهود تحويل الأقصى لغير أصحابه، فقال:

تبغي دمار المسجد الأقصى المحاصر بالكرب

تبغي إحالة قدسنا قدس (الخواجة) لا العرب[48]

إن استعمال الشاعر لكلمات مثل (دمار، والمحاصر، والكرب)، توحي بمدى المعاناة التي تعاني منها المدينة المقدسة، وتطلعنا على عِظم الخطر الذي يهدد المسجد الأقصى،

فالدمار سيكون مصيره إن بقينا صامتين، أو على الأقل سيتحول لمعبد لغير أصحابه وهم اليهود، الذين أطلق عليهم لقب (الخواجة)، وهذا اللقب استعمله أهل فلسطين للمحتل الإنكليزي ومن بعده الاحتلال الصهيوني.

وفي موضع آخر، يستلهم الشيخ رائد صلاح لفظ (الغربان) الذي هو رمز للخراب والدمار في الموروث الشعبي الفلسطيني، ليدل على أفعال المحتل في المدينة المقدسة، المتمثلة في التخريب والتدمير لمعالم المدينة المقدسة، فقال:

ولا ردت عن الأقصى أذى الغربان والسلب[49]

ومن الظواهر اللغوية في شعر الأسر حول القدس، ميل بعض الشعراء إلى استعمال الشعر الشعبي (الزجل) في بعض مقطوعاتهم وقصائدهم، مثال ذلك ما نجده عند الشاعر نواف العامر، إذ يقول في إحدى مقطوعاته:

يا قدسنا الله القوي من فوق

يحمي حماكي يخزي العدو الغدار

الله كتب ما ننغلب ولا ننهزم

نمشي الدرب ما ننثني يا دار

قدسي إلي للمرجلي ناسي وهلي

نقسم قسم نوفي الوعد أحرار[50]

ومن الظواهر اللغوية التي يمكن أن نسم بها شعر الأسرى حول القدس، ظاهرة الحوار وإن كانت قليلة عندهم، إلا أنها تستحق أن نظهرها، فمثلًا الشهيد الدكتور عبد العزيز الرنتيسي يستعمل الحوار بينه وبين نفسه التي تحاول أن تتمسك بالدنيا، فيصدها عن الراحة ويذكرها بالقدس التي تصرخ وتستغيث، فقال:

ماذا دهاك يطيب عيشك في الحزن؟ تشري النعيم وتمتطي صهو الصعاب

ماذا عليك إذا غدوت بلا وطن ونعمت رغد العيش في ظل الشباب!

يا هذه يهديك ربك فارجعي

القدس تصرخ تستغيثك فاسمعي

والجنب مني بات يجفو مضجعي

فالموت خير من حياة الخنّع

ولذا فشدي همتي وتشجعي[51]

ومما ميز لغة شعراء الحركة الأسيرة حول قضية القدس، كثرة الألفاظ الإسلامية والدينية التي ترجع في أصلها إلى القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، فمثلًا الشاعر وائل محيي يستحضر عدة ألفاظ دينية منها سورة الإسراء، ومحاريب، وراية القرآن، فمثلًا يقول في قصيدة بعنوان «في القدس موعدنا»:

جنود الحق في الميدان مسرعة

يقود جموعها أنور

يرتل سورة الإسراء في شوق

ليوم الوعد كي يثأر[52].

والشاعر نواف العامر، يستعمل ألفاظًا قرآنية ويستحضر شخصيات تاريخية مثل صلاح الدين، فقال:

قم يا صلاح الدين هيا

وأسرج العاديات ضبحا[53].

فالشاعر يستلهم الآية القرآنية «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا»[54]، والعاديات هي الخيول القوية السريعة وهي سلاح الشاعر لتحرير الأقصى من المحتلين.

وفي قصيدة أخرى، يستذكر الشاعر القدس من زاوية دينية أخرى، وهي منزلة القدس الدينية؛ حيث كانت قبلة المسلمين الأولى لقرابة خمسة عشر شهرًا، فقال:

وتبقى القدس قبلتي الأولى

وقبلتي[55].

والألفاظ الدينية الإسلامية نراها أيضًا عند الشاعر وليد خالد في أكثر من موضع منها مثلًا:

قل للعواصم إن تراقب قدسنا أخت العقيدة هان فيكم أمرها

حملتك وهنًا أرضعتك لبانها حرست لمسك من عدوك خمرها[56].

فلفظة أخت العقيدة هي لفظة إسلامية، ويقصد بها العقيدة الإسلامية، وعبارة حملتك وهنًا تقودنا إلى قوله تعالى: {**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ**}[57].

ثانيًا: استحضار الشخصيات التاريخية:

استلهم الشعراء المعتقلون التراث الإسلامي والتاريخي ووظفوه في أشعارهم حول مدينة القدس، حيث استحضر العديد منهم الشخصيات التاريخية التي ارتبطت بالقدس وبالأقصى، ومثال ذلك الشاعر وليد خريوش التي استحضر الشيخ عز الدين القسام الذي قاد الثورة ضد الاحتلال الإنكليزي، وذلك في إحدى قصائده التي عَدَّ الثورة التي تحصل في فلسطين امتدادًا لثورة القسام، فقال:

هذا نتاج من تواصل ثورة إن الطلائع قادها القسام[58].

والشاعر وليد خالد، يستحضر الفاروق وصلاح الدين، فالفاروق هو الذي فتح القدس من الروم وصلاح الدين حرّرها من الصليبين، فقال:

يدعوك شعبك يا صلاح الدين ثم حفت القلوب وتاقت الأنظار

يا سيدي الفاروق في القدس التي حررتها يتجبر الفجار[59].

وفي قصيدة أخرى، يجمع الشاعر الفاروق وصلاح الدين في بيت واحد، حيث سيقودان جيوش الفتح لتحرير الأقصى، فقال:

الفاتح الفاروق ثم صلاحنا بالآي والتتبير إنا قادمون[60].

وأعاد الشاعر استحضار صلاح الدين من خلال أحفاده الفاتحين الذين سوف يعبرون للنصر فوق الجسر المصنوع من رفات أبناء القدس وعظامهم، فهم قدموا كل شيء لأجل هذه المدينة المقدسة، فقال:

لنمد جسرًا من عظام رفاتنا فيمرّ أحفاد الصلاح الفاتحون[61]

أما الشاعر خالد سعيد، فيستحث صلاح الدين من أجل تحرير المسرى الذي هو أسير تحت وطأة الاحتلال، وهو يضع لنا وجهة نظره في تحرير المسرى، فقال:

قم يا صلاح الدين من جدَثِ لا يبتسم فالكفر في المسرى

واهتف بأهل القدس منتفضًا بعزيمة ستفتت الصخرا

والقدس مهما نابها غِيَرٌ ستضج يومًا ضجة كبرى

وتزلزل الطغيان تقذفه من أرضنا وتسوقه بَرّا

فلنا بها «طابو» يثبّته قرآننا في سورة الإسرا.[62]

والشاعر نواف العامر، يعتقد مثل غالبية الناس أن تحرير القدس لا بد له من صلاح الدين جديد يقود الجيوش لتحريرها، فقال مستفهمًا ومتمنيًا:

هل من صلاح يقود جيش الفتح عرمرم

لبيك جئنا من فيافي الأرض جيشًا

يروم فتح باب المجد وسيفي بلسم[63].

فالشاعر سيلبي نداء القدس بطريق واحد، وهو طريق الحرب الذي يقوده صلاح

الدين وهو سيكون جنديًا في هذا الجيش فالسيوف هي الشفاء لكل أوجاع القدس وآلامها.

وفي مقطوعة أخرى، يستحضر الشاعر بعض القادة الذين ساهموا في دحر الأعداء على أرض الشام في تاريخ الإسلام الطويل، فهذا صلاح الدين يعود من جديد في ذهن الشاعر، ويصاحبه نور الدين زنكي، فقال بعد أن عرض للمذلة التي تعاني منها المدينة المقدسة حيث دنس طهرها أوغاد الخنازير وراح العدو يستبيح حماها وأرضها:

وأنا العفيفة التي دنّس طهرها، وغد الخنا خبيث القلب والمظهر

وأنا في المذلة أرتمي يا لحسرتي، راح العدو بساحتي يغدو ويسهر

أو ما فيكم رجولة الكردي يوسف أو الزنكي نور الدين بساحي يظهر

الله أكبر يا لعاركم الذي تخجل منه الديار البيد والحضر[64]

والأمر نفسه عند الشيخ رائد صلاح، الذي استحضر صلاح الدين في ذهنه حين ذكر معاناة الأقصى والقدس، فهو يرى -كغيره- فيه مُخَلِّصًا لما يعانيه الأقصى والقدس، فقال:

صلاح الدين يا بشرى هلا أهللت كالبدر

وهذي القدس تدعوكم لحطين على الكفر

وهذا المسجد الأقصى يناديكم من الأسر[65].

فالشاعر يرى صلاح الدين البشرى المنتظرة التي سوف تحطم أغلال القدس والأقصى، فقدومه سوف يزيل ظلام الاحتلال كما يجلو البدر ظلام الليل، والقدس تنادي عليه وتدعوه ليعيد مجد معركة حطين التي كانت سببًا مباشرًا في تحرير القدس من الصليبيين عام 583ه، والمسجد الأقصى أيضًا ينتظر قدومه ليخلصه من الأسر، فصلاح الدين في نظر الشيخ رائد هو الأمل وهو كتيبة النصر.

وفي قصيدة أخرى (من يجيب القدس؟)، يعرض الشيخ رائد عددًا من الشخصيات التاريخية كالصحابة والقادة المسلمين الذين كان لهم الدور في جهاد الغزاة وطردهم من هذه البلاد على مرّ العصور، وأولهم الفاروق عمر -رضي الله عنه-، الذي فتحها وخلصها من ظلم الروم في صدر الإسلام، وبعض قاده جيوشه كالمثنى، وخالد بن الوليد، وخبيب بن عدي وكذلك صلاح الدين صاحب الفضل في تحريرها من الصليبيين، كما استذكر المعركة الفاصلة التي كانت سببًا في فتح القدس وهي معركة اليرموك، فقال:

القدس تسألنا عن الفاروق هل يومًا يعود

ومتى يصول مبارزًا سيف المثنى والوليد

ومتى صلاح الدين يرجع كي يفك لنا القيود

هل من خبيب يجيبني لبيك يا أم الصمود

القدس تسأل راية اليرموك عن أسرارها[66]

ثالثًا: الإكثار من أساليب الاستفهام والنداء

لعل نظرة فاحصة في شعر الأسرى داخل سجون الاحتلال تطلعنا على كثرة استعمال هؤلاء الشعراء لأسلوبي الاستفهام والنداء، فهذان الأسلوبان يوحيان بالحالة النفسية الصعبة وحالة القلق والحرمان التي يعيشها الأسرى داخل السجون[67]، وخير مثال على ذلك قصائد الشاعر وليد خالد الثلاث، التي كتبها للقدس، حيث جاءت هذه القصائد مليئة بهذين الأسلوبين الأسلوبين، ومثال ذلك قوله في إنكاره على المفاوضين الذين عرّضوا طهر المدينة وقداستها لمفاوضاتهم العبثية:

يا راكبًا للقدس متن تفاوض واهًا أيرخص في ضميرك أمرها؟

أو كان عَرّض للنقاش عفافها عار أيعرض للتفاوض طهرها؟

أترى تصافح من تلطخ كفه بدمائها وتحار فيما نكرها؟[68]

إن الشاعر يرفض رفضًا قاطعًا طريق المفاوضات لإعادة المدينة المقدسة إلى أهلها، فنراه يعيب هذا الطريق على أصحابه؛ لأنهم لن يعيدوا حقًا، ولن يحرروا المدينة، فنراه يمطرهم باستفهامات كثيرة لتظهر عجزهم وضعفهم عن إعادة المدينة أو تحريرها.

وتكرار الاستفهام جاء عند الشاعر نواف العامر، حيث بحث عمّن يخلص القدس من براثن الاحتلال ويعيد لها مجدها، لكن لا أحد يفعل ذلك في هذا العصر، فاستنجد بالاستفهام وبالسؤال عن صلاح الدين لعله يحررها، ثم أتبعه باستفهام يعيب على قيادة الشعب سكوتها وعدم قدرتها على إعادة الأقصى، فقال:

والقدس من للقدس يهتك سترها؟ والغاصب الغدار يغصب حارتي

والقدس من للقدس يسرق كنزها؟ كريه الوجه يغوي جارتي

والقدس من للقدس بات حداؤها؟ أين صلاح الدين أين قيادتي؟

والقدس من للقدس غار حرائها؟ مهدد البنيان بالثكنات

والقدس من للقدس أين قبابها؟ يعلو أذانها بالحسرات

يا قدس إنا بنوك فأبشري، الله أكبر غايتي والحياة حياتي[69]

من الأبيات نلحظ الاستفهام المتكرر، والذي يعرض من خلاله لما تعانيه المدينة المقدسة من ظلم واغتصاب، فمن للقدس حين يهتك سترها؟ ومن للقدس حين يسرق كنزها؟ ومن للقدس حين يعلو الأذان فيها مكللًا بالحسرات؟ وأين القيادة؟ وأين صلاح الدين؟

إن عرض المصائب التي تحيط بالمدينة المقدسة بأسلوب الاستفهام نراه عند غير شاعر، مثلًا الشاعر عمر عطاطره يعرض بعض جرائم الاحتلال باستعمال أسلوب الاستفهام، فقال:

أيجثم علج على أضلعي ويبصر قومي ولا ينهضون[70]

ومثل هذا الاستفهام الذي هدفه بيان مأساة القدس والأقصى تحديدًا نراه عند الشيخ رائد صلاح، في قصيدة كثُرت فيها الاستفهامات، حتى عنوانها جاء بصيغة الاستفهام، (من يجيب القدس؟) وهذه القصيدة في جلِّ أبياتها قائمة على الاستفهام، نأخذ منها بعض الأبيات توضيحًا لا حصرًا.

القدس تسألنا أليس لعفتي حق عليكم؟

أنا في المذلة أرتمي يا حسرتي ماذا لديكم؟

أنا في المهانة غارق حتى متى أسفي عليكم!

ومتى تثور زحوفكم وتجيبني: جئنا إليكم!

يا عاركم من ذي التي عن نصرتي شلت يديكم؟[71]

من خلال الاستفهام، عرض الشيخ رائد ما تعانيه القدس والأقصى، فطهرهما دنسه الاحتلال، وهي تعيش ذليلة مهانة، تنتظر الثورة، متعجبة ومستغربة من عدم نصرتها بعد كل هذه السنوات.

أما الشاعر المتوكل طه، فقد استخدم الاستفهام حين تحدث عن العرب الهاربين أمام المحتل، تاركين وراءهم مدينة القدس وحيدة تنتظر مصيرها، ومع ذلك يتبجحون بأنهم مرابطون على بوابات القدس وهم الذين يسعون لتحريرها، وهو يخشى أن تتحول إلى أورشليم والأقصى يصبح الهيكل المزعوم، فقال:

وكيف نقول: إنا عند باب القدس

والعربان قد هربت

وخلتها لتصبح أورشليم الهيكل المزعوم؟[72]

أما أسلوب النداء، فقد أكثر منه الشعراء؛ حيث عدّوه وسيلة للتواصل مع القدس

ومسجدها الأقصى، وبث الهموم لهما، وأحيانًا لشحذ الهمم والحث على تحريرهما وتخليصهما من الاحتلال، ومثال ذلك ما جاء عند الشاعر عمر عطاطرة في ندائه للقدس، وحثه لها على مقاومة الاحتلال، وإشعال النار تحت أقدام الغزاة والخائنين:

أيا قدس أذكي النار في وجه غاصب

وصبي جحيم الردى على كل خائن[73]

والشاعر خالد سعيد ينادي الأقصى الأسير، ويتبع نداءه باستفهام حول حنينه للسجود، وهذا السجود كناية عن عودة الأقصى حرًّا طليقًا، بعد طرد المحتل منه ومن ساحاته، حتى يعود أهله للصلاة فيه، والسجود في محرابه، فقال:

يا أيها الأقصى الأسير ألم تحنّ إلى السجود؟[74]

والأمر ذاته نراه عند الشاعر نواف العامر الذي أكثر من استخدام أسلوب النداء في أشعاره حول القدس، سواء أكان موضوع القصيدة بيان جمال القدس ومنزلتها في نفسه، أو لبيان ما تتعرض له المدينة المقدسة، ومنه مثلًا ما جاء عنده بالشعر الشعبي، حيث يقول في قصيدة بعنوان «لعيون القدس»:

يا حلوة يا مزيوني مثل القمر وأحلى

بتنامي جوا عيوني أو قلبي إيه والله

.....

أنت القدس يا روحي أنت الأصل وأغلى

يا بلسمًا لجروحي في القلب يا أهلا[75]

وفي قصيدة أخرى للشاعر العامر بعنوان «حبيبتي يا قدس» ينادي الشاعر القدس معزيًا لها نوم أمتها وغفوتها الطويلة، وغفلتها عما يحدث للأقصى والقدس، فطال ليل الاحتلال، وعتمة السجان، فقال في أبيات جمعت بين النداء والاستفهام:

يا قدس أمتنا العتيدة غفوتها طالت وطال الليل يا عجبي[76]

أما الشيخ رائد صلاح، فقد استعمل أسلوب النداء في عدد من قصائده حول القدس والأقصى، فنراه يخاطب المحتل الذي دنس طهر المدينة، على سبيل التحدي والوعيد له؛ ففي قصيدة (لا تلعبوا بالنار) يتحدى الشيخ رائد المحتل رغم قسوته وظلمة أسواره المحيطة بالأقصى قائلًا له:

يا أيها المغرقونا الأقصى بالأخطار

يا أيها الخانقونا القدس بالأسوار

يا أيها المفسدونا لا تلعبوا بالنار

المسجد الأقصى أعلى وكيدكم إلى دمار[77]

لعل البيت الأخير يختصر الحكاية كلها، ويعطينا هدف الشيخ رائد من نداءاته المتكررة لليهود والذين وصفهم بأوصاف عدة، وهو تحدي هذا المحتل وإخباره بأن كيده حول القدس والأقصى سيكون مصيره الدمار والبوار، وسيبقى الأقصى هو الأغلى والأعلى رغم كل المؤامرات والمصائب التي تحيط به.

الخاتمة

وبعد أن وصلنا إلى نهاية هذا البحث، نرى أن نسجل أبرز النتائج التي توصل لها البحث، بعد أن حلَّق في عالم الأسر، وتنسم رائحة العزة من هؤلاء العظماء الذين سجلوا للقدس ملاحم من دمائهم وزهرات شبابهم، ومن أشعارهم التي ستكون مدادًا للجيل القادم، وسجلًا للتاريخ عما عاناه هؤلاء الأبطال حزنًا على مدينتهم المقدسة.

1. القدس لم تغب عن شعراء الحركة الأسيرة حتى في أصعب مراحل حياتهم، فهي قضيتهم الأم التي أرخصوا لأجلها الدماء، وقضوا سنوات طوالًا خلف القضبان ثمنًا لحبهم وعشقهم لها.

2. كان حضور القدس في شعر الحركة الأسيرة أكثر زخمًا وقوة بعد فترة التسعينيات من القرن الماضي، حيث زادت أطماع الاحتلال بها، وخاصة بعد توقيع اتفاق أوسلو الذي فتح شهية الاحتلال لزيادة هجومه على المدينة، ولذلك كثرت الأخطار المحيطة بالقدس، فهيجت هذه الأخطار قرائح الشعراء للدفاع عن مدينتهم المقدسة.

3. تنوعت مضامين شعر الحركة الأسيرة حول القدس؛ فجاءت تارة تغنيًا بالقدس وجمالها وروعة شوارعها وسحر أزقتها، وقدسية ساحاتها ومساجدها، وتارة ثانية كانت لفضح الاحتلال وبيان جرائمه بحق هذه المدينة المقدسة، وفي ثالثة كانت بث الأمل بتحريرها، وبيان السبيل لهذا التحرير، حيث كانوا يرون المقاومة والنضال وإشعال الانتفاضة هي السبيل الوحيد لهذا التحرير، وقد عاب كثير منهم على المفاوض الفلسطيني الذي جعل من القدس مدينة للتفاوض.

4. استعمل شعراء الحركة الأسيرة اللغة السهلة البسيطة البعيدة عن التكلف والغرابة، ذات الألفاظ والدلالات الموحية والخاصة بهم كأسرى داخل السجون، والتي تصف جمال القدس ومعاناتها والحلم بتحريرها.

5. ظهرت عند كثير من الشعراء النزعة الدينية الإسلامية في ألفاظهم وعباراتهم، كونهم يتحدثون عن قضية مقدسة دينيًّا قبل أن تكون مقدسة مكانيًّا أو جماليًّا.

6. استلهم عدد من الشعراء شخصيات تاريخية كان الدور في تحرير القدس وتخليصها من الاحتلال والظلم الذي تعرضت له خلال تاريخها الطويل، كالفاروق عمر والقائد صلاح الدين.

7. أكثر شعراء الحركة الأسيرة من استعمال بعض الأساليب التي توصل رسالتهم، وخاصة أسلوب الاستفهام وأسلوب النداء.

المصادر والمراجع:

1 – عطاطرة، عمر، قصيدة مخطوطة

2 – محيي الدين، وائل: قصيدة بعنوان يا قدس، مخطوط.

3 – محيي الدين، وائل: قصيدة بعنوان يا قدس، مخطوط.

4 – محيي الدين، وائل: قصيدة بعنوان يا قدس، مخطوط

5 – محيي الدين، وائل: قصيدة بعنوان على تخوم القدس، مخطوط.

6 – خالد، وليد: قصيدة القدس تعرف من تكون، مخطوط.

7 – محيي الدين، وائل: قصيدة صباحك مقدسي، مخطوط.

8 – العامر، نواف: قصيدة القدس صرح قدسه الاله، مخطوط.

9 – العامر، نواف: قصيدة القدس ناري والضرام، مخطوط.

10 – العامر، نواف: قصيدة القدس حبي والغضب، مخطوط..

11 – العامر، نواف: قصيدة برقيات، مخطوط.

12 – العامر، نواف: قصيدة بلاد القدس أوطاني، مخطوط.

13 – صلاح، رائد: زغاريد السجون، ط. 1، عكا: مؤسسة الأسوار، 2006، ص275.

14 – خالد، وليد: قصيدة القدس شاعرة، مخطوط.

15 – خالد، وليد: قصيدة القدس بين الصغار والكبار، مخطوط

16 – الغرباوي، محمـــود: إبداع نفحة، مجلة أدبية غير دورية إصدار اللجنة الثقافية الوطنية ســـجن نفحة، القدس: دار القسطل، ط1، العدد الأول، تشرين الأول 1990، ص22.

17 – حنني، زاهر: من ادب الأسر، شعر المعتقلات في فلسطين، ط. 1، الأردن: دار دجلة، 2016م، ص 292، نقلًا عن مخطوط للشاعر.

18 – عطاطرة، عمر: مخطوط.

19 – عطاطرة، عمر: قصيدة أم المدائن، مخطوط

20 – محيي الدين، وائل: قصيدة دموع على وجنة القدس، مخطوط.

21 – العامر، نواف، قصيدة بعنوان القدس الحزينة، مخطوط.

22 – صلاح، رائد: زغاريد السجون، ص 67

23 – سعيد، خالد: ديوان الأسرى أولًا: ص 31

24 – طه، المتوكل: فضاء الأعيان، قصيدة من أنصار 3، ط1، القدس دار الكاتب 1989، ص31.

25 – الغرباوي، محمود: رفيق السالمي يسقي غابة البرتقال، ط1، وزارة الثقافة، ص151.

26 – الغرباوي، محمود: رفيق السالمي يسقي غابة البرتقال، ص 151.

27 – الغرباوي، محمود: رفيق السالمي يسقي غابة البرتقال، ص 152.

28 – محجز، خضر: اشـتعالات على حافة الأرض، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، غزة، بالتعاون مع شركة فنون للطباعة والنشر، د.ت.ط.، ص90.

29 – الجولاني، نبيل: شـظايا ولهب، منشـورات وكالة أبو عرفة للصحافـة والنشر مطبعة الشرق التعاونية، القدس، 1976، ص97.

30 – السعدي، برهان: الشعر على الدرب، مخطوط قيل في سجن جنيد المركزي، ص22.

31 – طه، المتوكل: فضاء الأغنيات، ص38.

32 – عبد النبي، كمال: مجلة إبداع نفحة، ص41.

33 – خريوش، وليد: مجلة إبداع نفحة، ص41.

34 – عطاطرة، عمر: قصيدة ام المدائن، مخطوط

35 – محيي الدين، وائل: قصيدة على تُخوم القدس، مخطوط

36 – محيي الدين، وائل: قصيدة في القدس موعدنا، مخطوط

37 – صلاح، رائد: زغاريد السجون، ص48.

38 – صلاح، رائد: زغاريد السجون، ص117.

39 – صلاح، رائد: زغاريد السجون، ص129.

40 – صلاح، رائد: زغاريد السجون، ص 218–219.

41 – خالد، وليد: قصيدة القدس شاعرة، مخطوط

42 – خالد، وليد: قصيدة القدس بين الصغار والكبار، مخطوط

43 – ينظر زياد، محمود موسـى: الأدب الفلسطيني في سجون الاحتلال الإسرائيلي (1987–2000) رسائل ماجستير غير منشورة جامعة بيرزيت 2006، ص68.

44 – خالد، وليد: قصيدة القدس بين الصغار والكبار، مخطوط

45 – العامر، نواف: قصيدة عروس، مخطوط.

46 – العامر، نواف: قصيدة شفتي تعض أختها، مخطوط

47 – خالد، وليد: قصيدة القدس شاعرة، مخطوط

48 – صلاح، رائد: زغاريد السجون: ص 301

49 – صلاح، رائد: زغاريد السجون: ص 231

50 – العامر، نواف: قصيدة يا قدسنا، مخطوط.

51 – الرنتيسي، عبد العزيز: ديوان حديث النفس، منتدى أمجاد الثقافي، مكتبة آفاق، 2005، ص 87.

52 – محيي الدين، وائل: قصيدة في القدس موعدنا، مخطوط

53 – العامر، نواف: قصيدة قبلة العشاق قدسي، مخطوط

54 – القرآن: العاديات، آية 1.

55 – العامر، نواف: قصيدة قبلة وراحة، مخطوط.

56 – خالد، وليد: قصيدة القدس شاعرة، مخطوط.

57 – القرآن: لقمان، 14.

58 – خريوش، وليد، مجلة إبداع نفحة، ص41.

59 – خالد، وليد: قصيدة القدس بين الصغار والكبار، مخطوط.

60 – خالد، وليد: قصيدة القدس تعرف من تكون، مخطوط.

61 – خالد، وليد: قصيدة القدس تعرف من تكون، مخطوط.

62 – سعيد، خالد: ديوان الأسرى أولًا، ص58.

63 – العامر، نواف: قصيدة القدس الحزينة، مخطوط.

64 – العامر، نواف: قصيدة القدس العفيفة، مخطوط

65 – صلاح، رائد: زغاريد السجون، ص114.

66 – صلاح، رائد: زغاريد السجون، ص114 .

67 – ينظر زياد، محمود موسى: الأدب الفلسطيني في سجون الاحتلال الإسرائيلي (1997 – 2000)، ص74.

68 – خالد، وليد: قصيدة القدس شاعرة، مخطوط

69 – العامر، نواف: قصيدة القدس صرح قدسه الإله، مخطوط

70 – عطاطرة، عمر: قصيدة مخطوطة.

71 – صلاح، رائد: زغاريد السجون، ص 285

72 – طه، المتوكل: فضاء الأغنيات، ص 31.

73 – عطاطرة، عمر: قصيدة أم المدائن، مخطوط

74 – سعيد، خالد: ديوان الأسرى أولًا، ص 31.

75 – العامر، نواف: قصيدة لعيون القدس، مخطوط.

76 – العامر، نواف: قصيدة حبيبتي يا قدس، مخطوط.

77 – صلاح، رائد: زغاريد السجون، ص 273.

خليل بيدس: أول أسير فلسطيني في مواجهة الاحتلال البريطاني

جهاد أحمد صالح

كاتب فلسطيني

عاش خليل بيدس في حقبة زمنية تعدّ من أبرز حقبات تاريخنا العربي الحديث وأهمّها، خصوصًا النصف الأول من القرن المنصرم الذي كان غنيًا بالأحداث السياسية والفكرية والاجتماعية العاصفة.

فلقد انطوت الحرب العالمية الأولى على انتصار الاستعمار الغربي الجشع المتوثّب، وفي خضم أحداث هذه الحرب الطاحنة، ولدت الثورة العربية الكبرى، لكنها توفيت مع نهاية هذه الحرب على أيدي حلفائها الغربيين، الذين صارت مطامعهم الاستعمارية تظهر جليًا في بداية الأمر، وتتكرس في واقع أمتنا وحياتها بعد مدة قصيرة جدًا من نهاية الحرب.

فمن الناحية السياسية، خضعت المنطقة، بموجب اتفاقية «سايكس- بيكو»، إلى استعمار الدول الغربية المنتصرة، خصوصًا بريطانيا وفرنسا، ما أتاح المجال أمام المطامع الصهيونية بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين بقوة الانتداب البريطاني على أرضها، من ناحية أخرى.